غرام الكبار

حافظ إبراهيم

الرجل الصامت

في الصالون الصاخب

obeikan.com

obeikan.com

لماذا كان حافظ إبراهيم صامتاً في صالون مي ؟!

ولماذا كان أحرص رجال الصالون على الحضور مساء كل ثلاثاء إلى ندوة مي ؟!

وكيف رأى معارك غرام الكبار وصراع الجبابرة على امرأة واحدة هي مي زيادة ؟!

ولكن .. مَنْ هذا العاشق الشاعر الصامت ؟!

...

هو .. محمد حافظ بن إبراهيم فهمي المهندس المشهور باسم حافظ إبراهيم .. الشهير بـ حافظ إبراهيم شاعر النيل - في مدينة ديروط بمحافظة أسيوط في ٢٤ فبراير ١٨٧٢ من أب مصري وأم تركية .. توفى والده بعد عامين من ولادته وأنتقل حافظ إلى القاهرة مع والدته التي توفيت هي الأخرى بعد أعوام قليلة من وفاة والده وتولى خاله تربيته وادخله المدرسة وفي المدرسة أقبل حافظ على قراءة الدواوين الشعرية ونظم الشعر وهو الأمر الذي أثر على دراسته .

التحق بالمدرسة الحربية في عام ١٨٨٨ وتخرج منها في عام ١٨٩١ ضابطاً برتبة ملازم ثان في الجيش المصري وعُين في وزارة الداخلية. وفي عام ١٨٩٦ أُرسل إلى السودان مع الحملة المصرية إلى أن الحياة لم تطب له هنالك فثار مع بعض الضباط .. ونتيجة لذلك أُحيل حافظ على الاستيداع بمرتب ضئيل .

وبعد أن تم طرده من الجيش بعد أن قامت القوات الإنجليزية باتهامه هو ومجموعة من الضباط والجنود المصريين بتدبير مؤامرة عليها وتأليف جماعة وطنية سرية فقاموا بمحاكمته هو والآخرون وطرد من الجيش أعيد مرة أخرى للخدمة فعين بوزارة الداخلية عام ١٨٩٤م أصبح بعد ذلك رئيساً للقسم الأدبي بدار الكتب المصرية عام ١٩١١م ثم عمل محرراً بجريدة الأهرام .

في الفترة التي تلت عودته من السودان عاش حافظ حياة بها الكثير من الألم

والفقر وفي مصر بدأ يمعن النظر في حياة المصريين وتعمق فيهم فنظم العديد من الأشعار التي تنوعت بين مدح ورثاء ووطنية والتقى هناك بالعديد من الرموز الفكرية والوطنية من أمثال محمد عبده قاسم أمين مصطفى كامل البارودي وغيرهم مما اثر عليه كثيراً .

شعره :

قام حافظ إبراهيم بحمل هموم الوطن والشعب فعبر عنها في الكثير من القصائد الشعرية اشتهر بشعره الوطني وقوميته وارتبط شعره بالمناسبات على اختلاف أنواعها سواء رثاء أو مدح أو وصف وقال عنه الشعراء والنقاد انه احكم الصياغة والأسلوب وأجاد بهما وقد هزته الأحداث الوطنية التي مرت على بلاده في الفترة التي عاصرها كما اثر فيه ظهور الكثير من الشخصيات الوطنية الحاملة لهموم الوطن .

وحافظ من أهم شعراء مصر والعروبة ذائع الصيت .. عاصر أحمد شوقي ولقب بشاعر النيل وبشاعر الشعب .

من طرائف روعة أقداره :

أنه على متن سفينة كانت راسية على النيل أمام ديروط وهي مدينة بمحافظة أسيوط من أب مصري وأم تركية. توفي والداه وهو صغير. وقبل وفاتها أتت به أمه إلى القاهرة حيث نشأ بها يتيما تحت كفالة خاله الذي كان ضيق الرزق حيث كان يعمل مهندسا في مصلحة التنظيم. ثم انتقل خاله إلى مدينة طنطا وهنالك أخذ حافظ يدرس في الكتاتيب. أحس حافظ إبراهيم بضيق خاله به مما أثر في نفسه فرحل عنه وترك له رسالة كتب فيها :

ثقلت عليك مؤونتي ... إني أراها واهية

فافرح فإني ذاهب ... متوجه في داهية

بعد أن خرج حافظ إبراهيم من عند خاله هام على وجهه في طرقات مدنية طنطا حتى انتهى به الأمر إلى مكتب المحام محمد أبو شادي أحد زعماء ثورة ١٩١٩ وهناك اطلع على كتب الأدب وأعجب بالشاعر محمود سامي البارودي. وبعد أن عمل بالمحاماة لفترة من الزمن التحق حافظ إبراهيم بالمدرسة الحربية في عام ١٨٨٨ م وتخرج منها في عام ١٨٩١ م ضابط برتبة ملازم ثان في الجيش المصري وعين في وزارة الداخلية. وفي عام ١٨٩٦ م أرسل إلى السودان مع الحملة المصرية إلى أن الحياة لم تطب له هنالك فثار مع بعض الضباط. نتيجة لذلك أحيل حافظ على الاستيداع بمرتب ضئيل.

كان حافظ إبراهيم إحدى أعاجيب زمانه ليس فقط في جزالة شعره بل في قوة ذاكرته التي قاومت السنين ولم يصيبها الوهن والضعف على مر ٦٠ سنة هي عمر حافظ إبراهيم فإنها ولا عجب إتسعت لآلاف الآلاف من القصائد العربية القديمة والحديثة ومئات المطالعات والكتب وكان بإستطاعته – بشهادة أصدقائه – أن يقرأ كتاب أو ديوان شعر كامل في عده دقائق وبقراءة سريعة ثم بعد ذلك يتمثل ببعض فقرات هذا الكتاب أو أبيات ذاك الديوان.

وروى عنه بعض أصدقائه أنه كان يسمع قارئ القرآن في بيت خاله يقرأ سورة الكهف أو مريم أو طه فيحفظ ما يقوله ويؤديه كما سمعه بالروايه التي سمع القارئ يقرأ بها .

يعتبر شعره سجل الأحداث إنما يسجلها بدماء قلبه وأجزاء روحه ويصوغ منها أدبا قيما يحث النفوس ويدفعها إلى النهضة سواء أضحك في شعره أم بكى وأمل أم يئس فقد كان يتربص كل حادث هام يعرض فيخلق منه موضوعا لشعره ويملؤه بما يجيش في صدره

مع تلك الهبة الرائعة فأن حافظ صابه – ومن فترة امتدت من ١٩١١ إلى ١٩٣٢ – داء اللا مبالاه والكسل وعدم العناية بتنميه مخزونه الفكرى وبالرغم من إنه كان رئيساً للقسم الأدبى بدار الكتب إلا أنه لم يقرأ في هذه الفترة كتاباً واحداً من آلاف الكتب التي تذخر بها دار المعارف الذي كان الوصول إليها يسير بالنسبه لحافظ تقول بعض الآراء ان هذه الكتب المترامية الأطراف ألقت في حافظ الملل ومنهم من قال بأن نظر حافظ بدا بالذبول خلال فترة رئاسته لدار الكتب وخاف من المصير الذي لحق بالبارودى في أواخر أيامه

كان حافظ إبراهيم رجل مرح وأبن نكتة وسريع البديهة يملأ المجلس ببشاشته و فكاهاته الطريفة التي لا تخطأ مرماها .

وأيضاً تروى عن حافظ أبراهيم مواقف غريبة مثل تبذيره الشديد للمال فكما قال العقاد (مرتب سنة في يد حافظ إبراهيم يساوى مرتب شهر) ومما يروى عن غرائب تبذيره أنه استأجر قطار كامل ليوصله بمفرده إلى حلوان حيث يسكن وذلك بعد مواعيد العمل الرسمية

مثلما يختلف الشعراء في طريقة توصيل الفكرة أو الموضوع إلى المستمعين أو القراء كان لحافظ إبراهيم طريقته الخاصة فهو لم يكن يتمتع بقدر كبير من الخيال ولكنه أستعاض عن ذلك بجزالة الجمل وتراكيب الكلمات وحسن الصياغة بالأضافة أن الجميع اتفقوا على انه كان أحسن خلق الله إنشاداً للشعر. ومن أروع المناسبات التي أنشد حافظ بك فيها شعره بكفاءة هي حفلة تكريم أحمد شوقى ومبايعته أميراً للشعر في دار الأوبرا الخديوية وأيضاً القصيدة التي أنشدها ونظمها في الذكرى السنوية لرحيل مصطفى كامل التي خلبت الألباب وساعدها على ذلك الأداء المسرحى الذي قام به حافظ للتأثير في بعض الأبيات ومما يبرهن ذلك المقال

الذي نشرته إحدى الجرائد والذي تناول بكامله فن إنشاد الشعر عند حافظ. ومن الجدير بالذكر أن أحمد شوقى لم يلقى في حياته قصيدة على ملأ من الناس حيث كان الموقف يرهبه فيتلعثم عند الإلقاء .

حافظ كما يقول عنه خليل مطران «أشبه بالوعاء يتلقى الوحى من شعور الأمة وأحاسيسها ومؤثراتها في نفسه فيمتزج ذلك كله بشعوره و إحساسه فيأتى منه القول المؤثر المتدفق بالشعور الذى يحس كل مواطن أنه صدى لما في نفسه». ويقول عنه أيضاً «حافظ المحفوظ من أفصح أساليب العرب ينسج على منوالها ويتذوق نفائس مفرادتها وإعلاق حلالها.» وأيضاً «يقع إليه ديوان فيتصفحه كله وحينما يظفر بجيده يستظهره وكانت محفوظاته تعد بالألوف وكانت لا تزال ماثلة في ذهنه على كبر السن وطول العهد بحيث لا يمترى إنسان في ان هذا الرجل كان من أعاجيب الزمان»

وقال عنه العقاد «مفطوراً بطبعه على إيثار الجزالة و الإعجاب بالصياغة والفحولة في العبارة».

كان أحمد شوقى يعتز بصداقه حافظ إبراهيم ويفضله على أصدقائه. و كان حافظ إبراهيم يرافقه في عديد من رحلاته وكان لشوقى أيادى بيضاء على حافظ فساهم في منحه لقب بك وحاول أنْ يوظفه في جريدة الأهرام ولكن فشلت هذه المحاولة لميول صاحب الأهرام – وكان حينذاك من لبنان – نحو الإنجليز وخشيته من المبعوث البريطانى اللورد كرومر .

وفي عام ١٩١١ انتقل إلي دار الكتب رئيساً للقسم الأدبي ثم اشتغل محرراً بالأهرام .

من أهم أعماله الشعرية: «قصيدة العام الهجري ـ الأم المثالية ـ مصر تتحدث عن

نفسها ـ خمريات ـ سجن الفضائل»

أما بالنسبة لأعماله النثرية فمن أهمها « ليالي سطيح » .

ومن أعماله المترجمة: مسرحية شكسبير ـ البؤساء «لفكتور هوجو »

وقد اتصف حافظ إبراهيم بثلاث صفات يرويها كل من عاشره وهي : «حلاوة الحديث وكرم النفس وحب النكتة والتنكيت ».

ورحمَ الله حافظ إبراهيم الذي رحل عنا في ٢١ يوليو عام ١٩٣٢م

■ ■ ■

obeikan.com